مجلة إكليل للدراسات الانسانية
التصنيف الورقي: العدد 24 /كانون الاول/2025
المجلد(6)- العدد(4)-الجزء(3) IASJ-Iraqi Academic Scientific Journals

نظرية اللغة ودلالتها عند القديس أوغسطين

م.د. حسن محمد جاسم

كلية الآداب-جامعة البصرة

الكلمات المفتاحية: اللغة، المعنى، العلامة والإشارة، النص، اللغة والذاكرة

الملخص:

يدور البحث حول نظرية اللغة عند القديس اوغسطين، مع التركيز وبيان أبرز المفاهيم التي ناقشها في هذا الموضوع، أولى أوغسطين أهمية قصوى للغة ليس باعتبارها وسيلة للتواصل فقط، بل لما لها من دور جوهري في فهم الأشياء وتفسيرها وحفظها عن طريق الكتابة، فالكتابة كظاهرة إنسانية تُعد من لوازم التحضر وتقدم البشرية، لذا قام الناس باستخدام الحروف من خلال تحويلها إلى رموز وعلامات لحفظ الكلمات، كما عدّ اللغة وسيلة للتفكير ونقل المعاني والاحاسيس إلى الآخرين فلا سبيل عن اللغة بديلا في حياة الإنسان، بل هي عملية لاكتشاف الذات يهبها الله للإنسان، ومن جهة أخرى ربطها بالعلامات وهي تُشير إلى مفاهيم وأشياء اخرى وبها ندرك طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتجاوز أثر ذلك إلى طبيعة العلاقة العميقة بين اللغة والفكر والذاكرة، وعليه لا جدال بأن اللغة هي المرآة لجميع العمليات الفكرية والذهنية للإنسان، وهذا ما أدى به إلى ربطها بالمعرفة إذ أن فهم العالم ومعرفته لا يتم إلا بواسطة اللغة.

المقدمة:

لطالما شكّلت اللغة أهمية بالغة في التفكير الفلسفي، فكان البحث فيها من الموضوعات التي حظيت باهتمام واسع بين المختصين، ليس لكونها وسيلة للتواصل فحسب، بل لاعتبارها أداة لنقل الأفكار وتنظيم العلاقة بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه. ولا يُعد البحث في اللغة أمرًا جديدًا في عالم الفكر الفلسفي، غير أنّنا حاولنا أن نتوقف عند أحد أعلام فلسفة العصور الوسطى الغربية المسيحية، لبيان رأيه في هذه المسألة، وهو القديس أوغسطين.

وفي هذا السياق، ارتكزت اللغة عنده بوصفها وسيطًا للوصول إلى المعنى وفهم النص، والتعامل معها باعتبارها رموزًا وإشارات وإيماءات. وبهذا، كما أشار أهل النظر والتحقيق، (فقد سبق أوغسطين كثيرًا من الفلاسفة في الفترات اللاحقة)، ويظهر ذلك في حديثه عن الرمز والعلامة

والإشارة والدلالة والقضية والمعنى، وغيرها. كما عالج العديد من المسائل اللغوية وربطها بفلسفته ومباحثها المتنوعة.

يحاول البحث، في إشكاليته، صياغة نظرية القديس أوغسطين في اللغة، مبيّنًا أبرز مدلولاتها وسماتها، وما تقتضيه من علاقة مع النص والعلامة للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وفهم طبيعة صلة اللغة بالفكر والإيمان والمعرفة. أمّا المنهج الذي اعتمدناه في الدراسة، فيقوم على تحليل النصوص في سياق التحولات الفكرية التي مرّ بها أوغسطين، وذلك من خلال طرح الأسئلة وتحليل إجاباتها للوصول إلى النتائج المرجوّة.

وأخيرًا، اعتمد هذا البحث على مجموعة من المصادر والنصوص الفلسفية واللاهوتية التي ألّفها أوغسطين، والتي كانت المصدر الأول له، إلى جانب الاستعانة بالمراجع المكتوبة باللغات المختلفة.

أولاً: اللغــة

يُعرّف عن اللغة أنّها نظام أو مجموعة من الحروف ذات الصوت، قادرة على إيصال المعنى إلى الآخرين، وهي ترتبط بالمعرفة والتفكير. واللغة، بحسب القديس أوغسطين، وإن كانت وسيلة للتواصل بين أفراد الإنسانية، إلا أنّ وظيفتها لا تقتصر على ذلك، بل تتمثل وظيفتها الأساسية في البعد الروحي للعلاقة بين الله والإنسان، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال الواسطة، والواسطة هي اللغة التي توجد بين أفراد البشر. غير أنّه ينبغي الانتباه إلى مسألة مهمّة في هذا الصدد، وهي أنّ أوغسطين في نظريته اللغوية لم يقتصر على اللغة وحدها بوصفها أداة للارتباط والاتصال مع الآخرين أو مع الله، بل جعل أيضًا للصمت والتأمّل في عالم الأشياء التي تحيط به سبيلًا للإبانة عن مكنوناته. وهذا ما يُفهَم من التساؤل الذي يطرحه: ((أصحيح ما أقول، يا إلهي، ويا حياتي وحلاوتي المقدّسة؟ وما هو الواقع الذي نعبّر عنه حين نتكلّم عنك؟ ولكن الويل، ثم الويل، لمن يحتفظون بالصمت تجاهك، لأنّهم ثرثارون وهم يخرسون..!))[1].

يُجيب عن تساؤله بأنّ اللغة، بما تحويه من كلمات، لا يمكن أن تُحقّق وحدها الكشف مع الله، بل إنّ للعلامات الداخلية وما تحمله من معانٍ أثرًا أبلغ في التواصل مع الله وحده دون بقية البشر، إذ ليس بمقدورهم ألبتّة استيفاء معاني النفس أو الاستماع إلى صيحاتها، أو تحريك أوصالها، أو تحقيق رغباتها: ((وكنتُ أتمنّى لو أدلي برغباتي إلى من يحقّقها لي، ولكنها ظلّت طيّ الكتمان، ولم أقوَ على الإفصاح عنها، لأنّها داخلي، والناس خارجون عنّي، ولم يتّخذوا أدنى واسطة للبلوغ إلى نفسي. وكنتُ أرسل صيحات، وأقوم بحركات تتفق ووسائلي المحدودة....،))[2]، ومن هذا النصوص السالفة يُمكن أن نخرج بمجموعة من الملاحظات منها:

أولاً: إنّ الصمت يُعَدّ جزءًا من اللغة، يستطيع الإنسان من خلاله أن يعبّر عن مجموعة من الدلالات التي يختزلها. وهذه المشكلة لم تقتصر على ذاتها، بل إنّها تلازم مسألة اللغة، حيث يجب التعرّف فيها إلى طبيعة العلاقات وارتباطها بالمدلولات[3].

ثانياً: للإيماء والحركات الجسدية دور كبير في التعبير، ولها دلالة واضحة في نظريته اللغوية. ويتحدث أوغسطين عن اللغة، كما يذكر فتغنشتاين، بأنّ الناس حين يريدون التعبير عن شيء ما يستخدمون الصوت للنطق بموضوع معيّن، غير أنّ ذلك الصوت لا يكفي وحده للتعبير عن اللغة، بل قد يُفهَم من خلال الإشارة إلى ذلك الموضوع أيضاً[4].

فالحركات الجسدية، كتعبيرات الوجه وحركة العينين ونبرة الصوت، كلّها تُعَدّ لغة طبيعية تستخدمها جميع الشعوب ((وهكذا تعلمت بالتدريج عند سماعي للكلمات وهي تستخدم بطريقة متكررة في مواضعها الصحيحة في مختلف الجمل أن أفهم الأشياء التي يعنونها أو يُشيرون إليها))[5]، ثم إنّ أوغسطين يُبيّن دور الدُّربة والتكرار في تكوين الجمل الصوتية، إذ يرى أنّ هذه العلامات الصوتية هي التي تُستخدم للتعبير عن خلجات الإنسان ورغباته[6].

ثالثاً: تتألف اللغة من الصوت والفكر، ويُعزى الفارق بينهما إلى قابلية كل منهما للتأثر بإيعاز أو إيحاء معين، أو إلى إدراك وتدبّر المعنى يجب أن يحدث ضمن سياقه.

ونظن أنّ أوغسطين يُحدّد ماهية اللغة الإنسانية بقوله إنّها الألفاظ المفردة في اللغة، والتي تُسمّى موضوعات / أسماء. ومن هذه الموضوعات نحصل على الجمل المركبة، ويرى أوغسطين أنّ لكل لفظ معنى محدد يرتبط به، وهو الموضوع الذي يمثّله اللفظ[7]. ثم أن أوغسطين يُعالج موضوع المعاني بالقول بأن ((الكلمات ما هي إلا علامات، والعلامة لا تكون بوصفها كذلك إلا إذا كانت تدل على شيء ما، فكل كلمة علامة وكل علامة تدل على شيء ما))[8].

رابعاً: إنّ التعامل مع اللغة لا يتم على أساس ما تحمله من معانٍ فحسب، بل يشمل كذلك نبراتها، التي تشير إلى الخصوصية الموجودة في كل صوت من حيث حروفه، درجته، نغمته، إيقاعه، وشاعريته. وبذلك تتميز كل لغة عن الأخرى، ويكمن اختلاف اللغة اللاتينية عن اليونانية في نبرتها. وما يدعو للتعجّب أنّ الفكرة التي يطرحها أوغسطين وتُقلِب بها الأساليب السائدة، هي قوله إنّ النصوص التي يعرفها لم تُكتب ولا تختص بأي لغة بعينها، بل هي معانٍ ومضامين حسية وعقلية وتأملية موجودة في ذاته[9].

خامساً: إنّ اللغة التي يتعلّمها الإنسان لا تكون نتاجًا مباشرًا لبيئته أو خبراته، أو كما يقول أوغسطين، فهي ليست نتاجًا مباشرًا لتعليمه لدى الشيوخ أو المعلمين، بل هي عملية لاكتشاف

الذات يمنحها الله لعقل الإنسان. فالله هو المعلم الوحيد والحقيقي، الذي يكتسب الناس اللغة من خلاله[10]. وفكرة المعلم الواحد والفعلي في المعرفة والتعليم أخذها أوغسطين من الكتاب المقدس، "الإنجيل"، وأسقطها على نظريته اللغوية، فكما أن المعلم الأوحد في التعليم هو الله، كان المعلم الحقيقي للغة هو الله وحده. ((لأنّ مُعَلّمكُم واحد المسيح، وأنتم جميعا إخوة...، ولا تُدْعوا مُعلمين لأن مُعلّمكم واحد المسيح))[11].

يمكن القول إن رؤية أوغسطين للغة تعكس بعدًا عميقًا يتجاوز الوظيفة الأداتية للتواصل، لتظهر اللغة كنسق متكامل يتداخل فيه الصوت مع المعنى، والحس مع الفكر، والدلالة مع العلامة. فالصمت والإيماء والحركات الجسدية ليست مجرد إضافات، بل عناصر أصيلة تشكل شبكة متكاملة من التعبير. كما أن اللغة لا تُفهم فقط من خلال التكرار والممارسة، بل عبر انكشاف المعنى من خلال العلامة، حيث يصبح كل لفظ رابطًا بين عالم الحس وعالم الفكر. وعليه، تتجلى اللغة كفعل تأويلي يتصل بالذات والروح، مع إبراز البُعد المعرفي واللاهوتي الذي يجعل الله هو المعلم الأوحد للكشف عن المعنى الحق، بحيث تلتقي العلامة بالوحي والكلمة البشرية بالكلمة الإلهية.

ثانياً: نطاق اللغة ومهمتها

اعتاد كبار الفلاسفة في أبحاثهم اللغوية التأكيد على أن وظيفة اللغة الأساسية تكمن في كونها أداة للتواصل بين الأفراد؛ فإذا كان الناس يتفاهمون من خلال لغة معينة، ويؤثر بعضهم في بعض عبر هذا التفاهم، فإن هذه الحقيقة لا تغيّر من موقف أوغسطين تجاه المسألة. إذ يرى أن اللغة، بمعناها المألوف، قاصرة عن أداء وظيفتها في التعبير والإيصال. ويستدل على ذلك بعدة أمور منها:

أولاً: الأساس الديني: حيث يناقش أوغسطين مسألة الشعور بوصفها قضية تتداخل فيها الأبعاد اللاهوتية والفلسفية والنفسية، لكنه يربطها بالوعي الفردي وتفاعل النفس مع ذاتها وعلاقتها بالله. ومن هنا يطرح تساؤله: كيف يمكن للفرد أن يعبّر عن شعوره تجاه خالقه عبر الكلمات؟ وهو ما يعكس، برأيه، قصور اللغة في تحقيق الإيصال الكامل.

وعلى هذا الأساس، لا يُختزل دور اللغة في التعبير عن الوقائع والأمور الثابتة، بل تتجاوز ذلك لتصبح تجربة شعورية شخصية بين الإنسان[*] وخالقه، فهي علاقة ابتهال وصلوات وحوار داخلي، تتجسّد باللغة، لكنها تظل تجربة ذاتية باطنية يعيشها الإنسان ويكتشف من خلالها وجوده. ومن خلال هذا الحوار، يتجه الإنسان نحو كماله وتفوقه، إذ تنبع فيه حالة شعورية

تدفعه إلى التخلي عن أعباء الماضي من حسرات وأسى وخوف، لينفتح على آفاق المستقبل بما تحمله من بهجة وأمل وطمأنينة[12].

ثانياً/ الأساس اللغوي: يرى أوغسطين أنّ هناك صيغًا لغوية تعجز اللغة عن بيان معناها الحقيقي، كونها لا تخضع لمعيار الصدق والكذب، بل هي عبارة عن إنشاء يهدف إلى طلب ما. فهنا، كما يذكر حنفي، تكون اللغة عاجزة كذلك عن أداء عملها في التعبير (Expression) أو الإيصال(Communication) ، والسبب في ذلك أنّ الإنسان لا يستطيع إيجاد مرادف لبعض الأدوات أو الصيغ التي تنتمي إلى تركيب الإنشاء. وبذلك، تكون اللغة قاصرة عن توضيح معاني المفردات، إذ لا تستطيع تجاوز المسافة بين اللغة والأشياء. ومن ثم، فإنّ الصيغ الإنشائية (النداء، التمني، التعجب، الشرط، ...) لا يمكن الإشارة إليها بالكلمات[13].

وعلى الرغم من أنّ اللغة تعجز عن بيان الحقيقة والمعاني الباطنية، إلا أنّه لا يُمكن الاستغناء عنها مطلقًا، لأنّ ذلك سيكون مدعاة لإلغاء كل تواصل بشري. فكيف يمكن لنا أن ننقل المعلومات والمعارف من شخص إلى آخر؟

يرى أوغسطين في النهاية إمكانية المعرفة، بل إنه عُني بها عناية خاصة، لأن البحث في الحقيقة يقتضي الخوض في إمكانية الحقيقة. وكان من الواضح عنده أن النقل لا يتم بين البشر إلا من خلال اللغة، حتى إنه عدَّها الغرض الرئيسي بينهم. ومما لا ريب فيه أنّ الكلمات وُضِعت بين البشر لا لغرض الاحتيال وتضليل بعضهم بعضًا، بل ليتمكنوا من التواصل ونقل الأفكار فيما بينهم، وهو غرضها الحقيقي[14].

وعلى ذلك يُمكن أن نقول بأنّ كل لغة يجب أن تؤدي غرضا، وغرض اللغة ((كوسيط لتوصيل الأفكار والأمنيات التي تُعدّ في نهاية الأمر أمرا داخليا))[15]. وهذه الوساطة تتجلى في الاتصال مع الآخرين الذين يستخدمون نفس الغرض الذي يتم عبر كلمات يتفاهمون بها بحسب مجال عملهم، لذا كانت اللغة عنده نظاما للتفاهم[16]. والنقطة الجوهرية التي يتحدث عنها في مجال اللغة هي كيفية الاقتراب من فهم بنية اللغة ووظيفتها، إذ يعتبر اللغة نظامًا من العلامات لديه القدرة على التمثيل، ويتطلب تفسيرًا على شكل نظرية، وبالتالي الوصول إلى مكونات المعنى. وقد فكّر في اللغة كنظام من العلامات المعزولة[17].

وإذا كان أوغسطين - في بداياته - يصر ويكرر بأن اللغة ليست وسيلة للتواصل فقط، ولا مجالا للكشف عن الحقائق، فإنه يرى بأنّ اللغة أداة للتأثير، ودعوة للفعل والعمل، فالتركيز على أنّ اللغة مرتبطة بالأشياء أمر غير صحيح، إذ يُمكن اظهار الأشياء وتعليمها دون الحاجة إلى الرجوع

للكلمات، ويلاحظ أوغسطين بأن الأفعال الجسدية مثل المشي وتحريك الأصبع والأكل والشرب هي أفعال تدل على التعليم وتؤدي غرض اللغة دون أن تكون علامة او كلمة اضافية وهي بذلك تؤدي غرضا يُمكن أن يُعرف بـ (Pantomime) (التمثيل الإيمائي أو الصامت). إن كلّ حركة يقوم بها الإنسان للدلالة على شيء، لن تكون الشيء نفسه بل ستكون علامة للشيء، فلا إشارة للكلمة بكلمة بل هناك قدرة على التواصل بعيدا عن الكلمات[18].

يمكن القول إن رؤية أوغسطين للغة تتسم بتعدد الأبعاد، فهي تجمع بين البُعد الديني واللغوي والوظيفي. ففي المستوى الديني، تظهر اللغة كوسيلة لتجربة شعورية بين الإنسان وخالقه، تتجاوز مجرد الإبلاغ عن الوقائع إلى ممارسة تأملية وحوار داخلي يقود نحو الكمال الروحي والتحرر النفسي. أما على المستوى اللغوي، فهي تتضمن صيغًا إنشائية لا تُعبر عن المعنى المباشر أو الحقائق الباطنية، لكنها تبقى ضرورية للتواصل البشري ونقل المعارف، ما يجعلها أداة أساسية لنقل الأفكار والرغبات. وعلاوة على ذلك، يُبرز أوغسطين القدرة على التعبير من خلال الأفعال الجسدية والإيماءات، ما يشير إلى أنّ اللغة ليست مقتصرة على الكلمات أو الصوت فقط، بل تشمل نظامًا أوسع من العلامات والرموز التي يمكن أن تؤدي وظيفة الاتصال والتفسير دون الاعتماد الكامل على النطق، ليُصبح بذلك التأثير والفعل جزءًا جوهريًا من معنى اللغة ووظيفتها.

ثالثاً: اللغة والإشارة

تقدّم القول باعتقاد أوغسطين بأنّ الكلمات وما فيها من أصوات لا تفي بتحقيق التواصل بين البشر ولا نقل الأفكار بينهم، بل للإيماءات والإشارات دور كبير في ذلك. فالقديس أوغسطين قد جعل من اللغة الوسيلة الأكثر استخدامًا لنقل الأفكار إلى الآخرين، وهذه – على حدّ تعبير "جيلسون" – هي الوظيفة الطبيعية للغة. فسواء تحدّثنا إلى غيرنا أو أجرينا حوارًا داخليًا، فإننا نستخدم الكلمات للتعبير عن الرؤى أو للإشارة إلى الأشياء. ولكن الكلمات ليست العلامات والدلالات الوحيدة للتعبير الخارجي أو الداخلي؛ فقد تكون الكلمات علامات سمعية، والحركات (الإيماءات) علامات بصرية. لكن تبقى الإشارة، فبإمكان سائل أن يسأل: ما هو الجدار وما معناه؟ فيمكن أن أشير إلى جدار ما للإجابة. ومن خلال هذه الطريقة من العلامات يمكننا الإشارة إلى معانٍ تتجاوز عالم الأشياء الخارجية المادية، وكذلك الحال مع الأشياء الباطنية. وهذه الطرق – على حد وصف "جيلسون" – هي الأسهل على الإطلاق في الفهم والتعيين[19].

ويظهر بأنّ اللغة لوحدها قد تكون عاجزة عن التعبير وإيصال المعنى، إذ ((ليست اللغة ضرورية في التعبير، إذ يُمكن التعبير بالإيماء والحركة، وبالإشارة وبذلك تتحول اللغة من نطاق القول إلى الفعل، ومن القراءة للكتابة، ومن النطق للنظر، ومن الفهم للرؤية، ومن الأذن للعين، وتكون الحركة علامة على الشيء كالكلمة تماما))[20]. "يُرى أحيانًا أن الإشارة قد تكون أبلغ في التعبير من اللغة ذاتها؛ إذ قد يرغب المرء في استخدامها للدلالة على فعل لا نستطيع . أو لا نريد . أو نفضّل عدم وصفه بالكلمات. وهنا لا يبقى أمامنا إلا خيار أخير، وهو أداء الفعل نفسه عن طريق الإشارة. فإذا ما سأل أحدهم عن معنى المشي، فبالإمكان توضيح ذلك من خلال المشي نفسه، وإذا أراد أحدهم أن يتعلم من صياد طيور فن الصيد، أمكنه ذلك بمجرد مراقبته وهو يصطاد. وهكذا، وعلى أثر ذلك، فإن الأشياء قد تبدو واضحة من خلال الإشارات والعلامات في الأفعال[21].

والإشارة هي كلمة فيها معنى الاسم أو الفعل، أو هي لفتة ذات معنى، فهي لا تعني شيئًا بحد ذاتها، بل تتبع أشياء ومعاني وأهدافًا معينة. وهي تسمح بتكوين الروابط بين الرمز والمفهوم من خلال الإشارات المتعددة لتشكّل حلقة من الإشارات المنطقية، على اعتبار أن كل إشارة ترتبط بإشارة أخرى، وكل الأشياء لا تُفهم إلا من خلال الإشارات، وكل ذلك يتم داخل فضاء اللغة[22].

نلاحظ إنّ أوغسطين يتجاوز الفهم التقليدي للغة باعتبارها مجرد وسيلة للتواصل الصوتي، ليعرض رؤية شاملة تشمل الإيماءات والحركات والعلامات كأدوات أساسية لفهم الواقع ونقله. فاللغة، وفق رؤيته، ليست مجرد كلمات، بل شبكة من الإشارات المترابطة التي تُمكّن الإنسان من التعبير عن مفاهيم مادية ومعنوية على حد سواء. كما أنّ التمثيل العملي للأفعال والإشارات يعكس قدرة الإنسان على التواصل والتعلّم دون الاعتماد الكامل على الصوت، ما يُبرز دور اللغة في الدمج بين الفعل والفكر، والظاهر والباطن، ويؤكد أنّ فهم المعنى لا يقتصر على الكلمة وحدها، بل يشمل كل منظومة العلامات التي تشكّل فضاء اللغة.

رابعاً: الكلام البشري

من الموضوعات المهمة التي بحثها القديس أوغسطين في بحثه عن اللغة هو الكلام وكيفية نشأته، والكلام يدل على معنى، وهو كلام مفيد يتكوّن من مجموعة من الجمل. وهذا ما يتبيّن من كلام أوغسطين عندما راح يجمع الألفاظ المختلفة ويرتبها بحسب مكانها الصحيح ليخرج بجمل مختلفة.

والكلام مرتبط عند أوغسطين ارتباطًا كبيرًا بنشأة الوعي البشري منذ خلقه الأول، إذ لا ينفصل الكلام عن نشأة الإنسان، بل هو أحد تعبيراته الجوهرية والأساسية. وبذلك يدحض أوغسطين رؤية "فريجيل" في الإنيادة عندما تحدث عن نشأة العالم بعد ربطه بخلق الأسطورة، وكيف انطلقت ذرات العناصر الأربعة عبر الفراغ وتماسكت لتكوين العالم، ثم تصلبت الأرض أكثر وانفصلت عن المحيطات، فظهرت الشمس والغابات والأمطار والحيوانات، ومن الحجارة تكوَّن الجنس البشري. وبدأ الناس بالتواصل بينهم حتى نشأت الزراعة والصناعة، وشقوا البحر، وهكذا نشأ الكلام البشري بفعل صمت الطبيعة والحاجة البشرية. ومثل هذه الرؤية مرفوضة عند القديس أوغسطين، إذ يرى أن الكلام نشأ وارتبط بخلق الإنسان ووعيه وعقله[23]. ومن جهة أخرى ، يرسم أوغسطين اللحظة الأولى للكلام والنطق البشري ببداية صوتية تكتمل شيئًا فشيئًا، فيقدّم بذلك لحظة تأسيسية لغوية مرتبطة بمحاولات الإنسان للكلام. تبدأ اللحظة الأولى من انفعالات الإنسان ليعبّر عن شعوره تجاه الأشياء، لتنتظم بعد ذلك في دلالات عقلية ورمزية. فلا تولد اللغة، كما ادّعى "فريجيل"، كصرخة عن مكنونات الإنسان يشترك بها مع العواء الحيواني يُسمع صداها بين أرجاء الطبيعة، بل تولد عند أوغسطين من نظام مفاهيم أولي كاستجابة جسدية، ثم تتطور إلى نظام مفاهيمي وعلامات وأقسام [*] متكاملة تعبّر عن التميّز العقلي. وإذا كان "فريجيل" تحدث عن الصراخ والصياح في تكوّن الكلام فإن اوغسطين استبدله بالصمت الداخلي لنشوء الكلام البشري، فالكلام الحقيقي قد يكون **كلاماً ظاهرياً** ((مجموعة من الكلمات تُنطق بصوت واضح ومنطوق، ويكون مصحوبا بالكلمات ودلالاتها))[24]، ويقابله **كلاماً داخلياً** لا يُعبَّر عنه من خلال الصوت حصرًا، بل هو "فعل قائم في الصمت الداخلي" لكل كلمة، بل يستدرك بالقول إن الكلام يتأسس على الصمت الخلّاق المُستتر داخل القول. فالصمت لا يكون انعدامًا للكلام، بل نمطًا وملمحًا لحضوره الأول، فالإنسان ليس هو ما يتكلمه فقط، بل ما يصمت عنه[25].

والكلام عند القديس أوغسطين يتألف من مجموعة من القضايا، وكل قضية يجب أن تحمل معنى تامًا على اعتبارها جملة تامة وكاملة. وهو بذلك لا يبتعد عن التعريف المنطقي للقضية، معتمدًا على مرجع البلاغة الأول "شيشرون" في هذه المسألة، ويتأثر أوغسطين به في تعريف القضية المنطقية على اعتبارها قولًا يحتمل الصدق أو الكذب، ويعبَّر عن الأول "بالإثبات" وعن الثاني "بالنفي". وكل قضية يجب أن تحتوي إمّا على مجموعة من الأسماء (الجمل الاسمية) أو على اسم وفعل (الجمل الفعلية). ويُسمي القديس أوغسطين القضية، جريًا على ما أخذه من

"شيشرون"، بالمنطوق(Pronontiatum)[26]، والمنطوق عنده ((هو القضية التي تتألف من خلال انضمام الاسم أو الفعل إليه))[27]، وعليه تتألف قاعدة صناعة الكلام من مجموعة من الكلمات وهي:

1. مجموعة من الأسماء ومنها علامات الإشارة، والضمائر وحروف العطف، والاسم ((هو ما يُسمى به الشيء))[28]. وهو جزء من الكلمة إذ يرى أوغسطين بأن النسبة المنطقية بينهما هي العموم والخصوص المطلق، فكل اسم لا يخرج عن كونه كلمة، ولا عكس فليس كل كلمة اسم، على اعتبار ان الكلمة عبارة عن صوت متقطع يدل على شيء ما.
2. مجموعة من الأسماء والأفعال عن طريق الإدماج بينهما.

خامساً: اللغة والتذكر والتعلم

إنّ السير الفكري والمعرفي لبحث اللغة عند أوغسطين يستدعي إظهار طبيعة العلاقة بينها وبين التذكّر والتعلّم، لذا خصصنا هذا المقام للحديث عن طبيعة العلاقة بينهما.

يبدأ أوغسطين محاورته بذهول وحيرة، فيسأل عن اللغة. فإذا كان التعبير ليس مجرد كلام مُفصِح أو مُوضّح عن أمر موجود لإيصال الحقائق، كما نقرأ في محاورة المعلم (DE MAGISTRO)بين "أوغسطين" و"أديوداتوس"، فإنه يبيّن **أولًا** قيمة اللغة التي نتحدث بها: فهل تكون في ذاتها (التعلّم)، أم تتجاوز إلى الآخرين لتبادل المعرفة (التعليم)؟[29]، **وثانيا** يناقش التعليم ضمن إطار فلسفي من جهة تعلم معاني الكلمات وكيفية حضورها في النفس عن الطرق التذكر، وهو ما يتضح من خلال قوله ((اعتقد أن هناك نوعا من التعليم لا يحصل إلا التذكر، وهو تعليم عظيم حقا،.. فهناك سببين للغة، إما نُعلِم بها، أو نُذكِر الآخرين – أو أنفسنا – من خلالها..))[30].

إنّ إثبات مثل هذا الطرح عند أوغسطين يبيّن أن العلاقة بين التذكّر والتعلّم عمليتان مترابطتان. فإذا كان التعلّم هو الاستطاعة لاكتساب المعرفة، فإنّ التذكّر هو عملية استعادة وترداد لها. وترشدنا المصادر التي دوّنها في هذه المسألة إلى أن الذاكرة الإنسانية لها دور بارز في استذكار الصور الحسية، ويمكن فهم وتسويغ ذلك من خلال التساؤل التأملي الفلسفي الذي يطرحه: ((هذه الصور كيف تكوّنت؟ ومن يعرف الحواس التي تضبطها وتخزنها في باطننا؟))[31].

وإذا أردنا أن نحتج على أوغسطين بأوغسطين فإن جميع تلك الإحساسات من "النور والصور والألوان والبصر والشم وغيرها" وَلَجَتْ في مدخلها الخاص في أعماق النفس والذاكرة[*]، فحتى الإنسان وإن كان بعيدا عن النور واستقر في الليل الأليل، أو بعد عن مكان الضجيج وتأمل

الصمت الرهيب، أو وجد في مكان انعدمت فيه الروائح والجزئيات، فإنه ((استطيع في الظلام والصمت، أن أحيي في ذاكرتي، الألوان، وأميّز بين الأبيض والأسود وسواهما، ولا أخشى من ان تعكر الأصوات الصور التي التقطتها عيناي،.. أني أميّز رائحة الزنابق من البنفسج دون أن أشم زهرة وأوثر العسل على النبيذ المطبوخ، والناعم على الخشن دون أن أذوق ولا ألمس شيئا، إنما يتم ذلك بالتذكر فقط))[32].

يرشدنا النص السابق إلى أن أوغسطين يستطيع أن يميّز الألوان والروائح والكلمات والألحان والملمس والتذوّق وكل هذه العمليات لا تحصل إلا في الذاكرة، لذا كانت ((عظيمة هي يا إلهي قدرة الذاكرة))[33] ومن خلالها نستطيع أن ننقل أفكارنا، وتكون أداة للتواصل. وهذا ما قد يُفهم من قول "حنفي" بأن ما تقوم به اللغة كونها عاملاً مساعدًا وواسطة في التعامل بين الذاكرة من جهة، والتعليم من جهة ثانية. فاللغة منبّهة على الأشياء، دالة عليها، وتستحضر الحقائق في الذاكرة. فلو فرضنا أن اللغة تعجز عن إيصال بعض الحقائق وعاجزة عن التعليم، لكن لا يُمكن لها – اللغة – أن تَقْصُر عن إحياء الذاكرة. ومثل هذا الأمر يُنبهنا إلى مقولة فلسفية معروفة بأن (المعرفة تذكّر والجهل نسيان)[*] سار عليها أوغسطين وهو ما يظهر التأثر الكبير بينهما، فليست المعرفة شيء جديد يكتسبه الإنسان قدر ما هي تذكر لأشياء موجودة داخل النفس والذاكرة[34].

ولا تقتصر الذاكرة على معرفة الحقائق التي تأخذها من الحواس، بل تشمل كل العلوم أو الفنون الحرة التي تدرسها الفلسفة. وتأكيد مثل هذا الطرح يأخذنا إلى الرجوع إلى الأسئلة الميتافيزيقية التقليدية الشائعة وربطها بمبحث اللغة والذاكرة، فيذكر في "الاعترافات" ثلاثة أصناف من الأسئلة: هل هذا موجود؟ ما هو جوهره؟ وما هي صفاته؟

إذا كانت الذاكرة تحتفظ ببعض الصور عن العلامات التي تأخذها من الأشياء، فمثل هذه الأسئلة الميتافيزيقية ليست كالصوت العابر أو الرائحة المندثرة، إنها معارف وعلوم تترك الخارج لترمز إليه، ثم تتركب منها الألفاظ. فالألفاظ في المدركات العقلية حاضرة، لكن المضمون والمعنى لا يُمكن تشخيصه بسهولة كما هو الحال مع المدركات الحسية، فلم يصل إلى الحقيقة المركبة من تلك الألفاظ أو الكلمات. فالقديس أوغسطين، كما يصرح في "الاعترافات"، يحفظ ويتذكّر نبرة الصوت لكل كلمة وكل لفظ صدر من الفم وركّب الألفاظ، حتّى قال في تعريف الصوت بأنه ((صورة النبرات التي تتركب منها الألفاظ وأن هذه النبرات قد اجتازت الفضاء مصحوبة بضجة وأنها قد انقطعت عن الوجود {لأنه} لم أصل إلى ما ترمز إليه..))[35]، أي انّ ما يتبقى منها في

الذاكرة هو المعنى العقلي الذي أخذه من الكلمات وهو ما يعبر عن طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر والذاكرة لا كما هو الحال مع المدركات الحسيّة [36].

يتضح أن الذاكرة لا تُختزل في كونها مستودعاً للصور الحسية العابرة، بل تعمل كآلية عقلية تحول العلامات الصوتية إلى رموز دلالية ثابتة تتجاوز لحظة الإدراك الآني. فاللغة تظهر في بُعدين متمايزين: فهي من جهة ظاهرة حسية زائلة ترتبط بالزمان والمكان، ومن جهة أخرى دالّ معرفي يبقى في الذهن بعد زوال أثره المادي. ومن هنا تتجلى خصوصية العلاقة بين اللغة والفكر والذاكرة، حيث لا تحتفظ الذاكرة بالمظهر الصوتي العابر، بل بالمعنى العقلي المتجرد منه. ويمثل ذلك تصوراً مبكراً لفكرة التجريد الذاكري، إذ تتحرر الذاكرة من المحسوس لتبقي على جوهره الدلالي. هذا الطرح يمهّد لاحقاً للتفريق الفلسفي بين الدال والمدلول، ويكشف عن أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل الخارجي، بل أداة داخلية أساسية في تكوين الفكر وتثبيته. ومن ثمّ، فإن الذاكرة تصبح حلقة وصل جوهرية بين التجربة الحسية والفعل العقلي، بما يمنحها موقعاً مركزياً في الإشكاليات الميتافيزيقية والمعرفية على السواء.

إن علاقة اللغة بالذاكرة تتجلى كذلك من فهم طبيعة ووظيفة الذاكرة التي تتضمن نصوصا عديدة ((وضعنا يدنا عليها، وهذا يعني الحفظ والمعرفة))[37]، يريد بذلك أن جميع النصوص نتذكّرها وهي محفوظة عندنا، نتأملها ونستخرجها، ونصل إليها على اعتبارها نوعًا من الحفظ والمعرفة. وهذه ما يرجعنا إلى نظريته في المعرفة، عندما جعل المعرفة المؤدية إلى العلم هي معرفة الوقائع الأزلية والأبدية. ولكن أين توجد مثل هذه الحقائق؟ يرى أنها موجودة ضمن طبيعة النفس الإنسانية، ويصل إليها الإنسان عن طريق ذاته، على اعتبار أنها موجودة في ذاكرتنا، ووجود النصوص فيها والقابلية على استعادتها هو ما يتيح للإنسان المعرفة[38].

يرى أوغسطين أنّ الذاكرة فضاء نشطًا يُخزّن فيه النصوص والأفكار لتُستدعى عند الحاجة، ما يجعل اللغة والذاكرة مرتبطتين ارتباطًا جوهريًا، إذ يُمكّن الاستذكار الإنسان من الوصول إلى المعرفة الداخلية والحقائق الأزلية والأبدية.

وفي جملة القول، على الشخص أن ينطلق في معارفه من خلال البحث عن الذات، ومن خلالها يكتشف جميع الحقائق. هذه هي النقطة الأساسية التي سيسير عليها أقطاب الفلسفة الحديثة؛ بدأت من الذات وراحت تكتشف الوجود. فالتعبير (cogo et cogito) وظّفه أوغسطين بتحليل لغوي وفلسفي ليُشير به إلى التفكير فالعقل ولمصلحته الخاصة، يجمع وينظم ويرتب جميع الصور والمعاني ليخرج بالمعرفة فـ ((أصبح هذا التجمع الذي يحدث في العقل هو ذاته ما يُسمونه

التفكير))[39]، لا بل هو على حد تعبير "فريس" ((هو – العقل - الذي كان عليه أن يصير علامة لكل حقيقة))[40]. تتضح رؤية أوغسطين العميقة للعقل باعتباره فضاءً منظمًا للصور والمعاني، حيث تتحول التجارب والمعارف الفردية إلى معرفة واعية من خلال عملية التأمل الذاتي. فالفكرة المركزية هنا هي أن التفكير ليس مجرد نشاط سلبي، بل عملية تنظيم وترتيب يتيح للإنسان الوصول إلى الحقائق. ويبرز استخدامه لعبارة (cogo et cogito) الربط بين الفعل العقلي والوعي الذاتي، ما يجعل العقل علامة على الحقيقة، ويؤكد على أن المعرفة تبدأ من الذات قبل أن تمتد إلى العالم الخارجي.

سادساً: الكلمة والمعنى

يرى القديس أوغسطين وجود بون شاسع بين الكلمات والمعاني التي توجد في الكلمة وتعبر عنها، وهذا ما يلخصه بقوله ((شتان ما بين الكلمات والأشياء))[41]، ولكن إذا ما ركزنا في المعنى الذي يريده من الكلمة باعتبارها مبحثا من مباحث فلسفة اللغة، يتضح بأن أوغسطين نظر إلى الكلمات على اعتبارها تجل من الله، والكلمة تكون كذلك عندما:

1. أن تعتبر الكلمات "دلالات"، فكل كلمة تشتمل على هيئة وبنية تدل على شيء.
2. أن تكون لها معنى خاص بها.
3. أن ترمز الكلمة إلى شيء تمثله.
4. أن يكون هناك ربط بين رسم الكلمة والمعنى المُشار لشيء محدد[42].

ولا تنشأ التعريفات اللفظية إلا من خلال إيجاد مجموعة من العلاقات بين الكلمات أو الألفاظ الأخرى، مما يُساعد على إنشاء شبكة دلالية من العلاقات داخل النظام اللغوي. إن التعريفات لا تُستمد من اللغة "النبرة" وحدها، بل هناك تعريفات تنشأ بالإشارة. وعلى ذلك، يولي أوغسطين من التعريف بالإشارة لغة ذات معنى تؤدي غرضها التفاعلي والتواصلي، وهي السبيل والتمهيد الذي يربط الكلمات وما لها من معنى في الأشياء.

فإذا كانت الكلمات عبارة عن دلالات لها معنى، فإن وسيلتها في التعرف هي الإشارة، وبذلك تُعد التعريفات بالإشارة هي الأساس والقاعدة التي تستند إليها كل لغة[43].

وعلينا التنويه هنا إلى أنه إذا كان هناك من ربط وثيق بين الكلمة والمعنى الذي تحمله وطريقة استعمالها ضمن سياقات معينة، أو الصلات التي تربطها بالفعل والإشارة، فإن أوغسطين يُعالج موضوع معاني الكلمات من خلال القول بأن الكلمات ما هي إلا علامات، أي أن الكلمة بمفردها

ليست إلا رمزًا لا تدل على شيء في حد ذاتها. وكذا الحال بالنسبة إلى العلامة؛ يجب أن تعبر وتدل على شيء ما ليتم بها الفائدة ((كل كلمة علامة، وكل علامة تدل على شيء ما))[44].

فما هو المراد من العلامة وما فائدتها في المباحث اللغوية عند أوغسطين؟

سابعاً: العلامـة

بعد بيان أنّ اللغة تحقق غرضها في التعليم ونقل المعلومات من الأشياء، يجدر الإشارة إلى أنّ الأشياء لا تُتعلم إلا من خلال العلامات. فالتعليم يتعلق بالأشياء، وما الكلمات إلا عبارة عن علامات وُضعت للدلالة على شيء ما. وتلخّص محاورة "المعلم" ذلك بالقول بأن (الكلمات علامات)[45]، ويخصص فيلسوفنا الفصل الأول من الكتاب الثاني من مؤلفه (في العقيدة المسيحية) لبيان العلامات والحديث عن تعريفها وتنوعها، ويرى فيها – العلامة – ((بأنها شيء يترك انطباعا، يتسبب في ظهور شيء آخر في الفكر والعقل كنتيجة ذاتية))[46]، ويُلاحظ على تعريف أوغسطين أنّ العلامة تكون ذات دلالة ترتبط في إعطائها المعنى المراد، إذ لا يوجد أي تفسير لإعطاء العلامة إلا الرغبة في استخراج ما يكمُن في ذهن مُعطي العلامة والقدرة على نقلها إلى ذهن شخص آخر. فهي في جوهرها ليست إلا أداة للتعامل بين العقول البشرية، أي أنها تعمل كجسر بين أفكار الناس وعقولهم [47].

وعبر أوغسطين عن العلامة بشيء، على اعتبار أنّ بعضها قد يكون لغويًا والآخر غير لغوي. فتحدث عن دراسة العلامات والرموز والإشارات، وكيف تساهم في إنتاج المعنى، ثم يضرب بعض الأمثلة على ذلك: فوجود الدخان يدل على النار، والقدم على المسير، وصوت الرجل على حياته، والبوق على التقدم، وهكذا [48].

ويرى أوغسطين أنّ كل علامة لا تكون كذلك ما لم تدل على شيء. ويستكشف أوغسطين ما إذا كانت جميع الكلمات حقًا هي علامات، وذلك بعد أن يضرب مثلًا لابنه ويطلب منه أن يخرج العلامات منه. هنا نجد الاختلاف واضحًا بين رأي أوغسطين الذي أقر قبل لحظات بأن "الكلمات علامات"، لكن هل موقفه هذا يخص جميع الكلمات أم بعضها؟ فهل يُمكن أن تُسمى العلامة علامة ما لم تكن تدل على شيء؟ إن هذا التساؤل هو تساؤل فلسفي يطرح طبيعة العلامة من جهة قصدها. فالأشياء قد تكون مادية حسية أو لا، وقد تكون يُحال إليها أو لا ، وهكذا، فهل العلامة حتى تكون كذلك يجب أن يكون لها رمز واسم وشكل ومعنى، أم أن الحروف والأدوات – كالشرط – هي علامات وإن لم تدل على شيء؟[49].

يطلب أوغسطين من ابنه أن يعد له الكلمات الموجودة في شعر "فرجيل" وبيان دلالتها باعتبارها علامات:

يُجيب "أديودات" بأنها ثلاثة عشر علامة، وبعضها ليس له ما يقابلها من رمز أو شكل، بل هي مجرد ألفاظ "صوت" لا يُمكن، على حد تعبيره، إيجاد ما يفسرها من كلمات أو علامات. فمثلًا، أدوات الشرط si" إذا"، وحروف الجر ex" مِن"، وألفاظ العدم nihil" لا شيء"، قد تدل على الشك وأخرى على اليقين، وهكذا. لكن هل لها علامة بإزاء ما يُقابلها؟ وعلى أثر ذلك، أقر "أوغسطين" في محاورة "المعلم" بأنّ ما لا وجود له، لا يُمكن أن يكون شيئًا بأي حال من الأحوال، لذا يتراجع عن نصوصه السالفة بالقول : ((لذلك كُنّا مُخطئين في الاتفاق على أنّ جميع الكلمات هي علامات، أو أنّ كل علامة تدل على شيء))[50]. ولكي يتجاوز أوغسطين هذه المسألة، يطرح فكرة تبادل العلامات – الكلمات – لشيء واحد، وذلك من خلال التعبير عن بعض العلامات بعلامات أخرى. فهناك كلمتان بينهما قرب دلالي يعبران عن شيء واحد، على أن لا تنشأ عن هذه القاعدة اللغوية حالات كثيرة، بل هي محصورة ببعض العلامات.

وفي هذا السياق اللغوي تظهر إشكالية كبيرة في نظرية اللغة والعلامة عند أوغسطين، فبعض الكلمات لا علامة لها، بل معناها مستمد من طبيعة علاقتها ببقية العلامات القريبة منها. وكأنما يعمد أوغسطين إلى شرح الكلمات بكلمات والعلامات بعلامات، وهذا ما يدفعه إلى التركيز على مسألة الشرح ضمن إطار السياق اللغوي و"العلامي" لكل جملة. فلا يُمكن الوصول إلى المعنى من نفس الكلمة على اعتبار أن معنى الكلمة الأصلي مُلاحظ فيه المعنى والعلامة التي تُشير إليه. فيكون هناك استخدام لغوي مقارب لبعض الكلمات، وقد يكون أشار إلى استخدام الكلمات المترادفة التي تُطابق العلامات المقاربة لها من جهة الشكل أو المضمون، وكأنما يعمد أوغسطين إلى شرح الكلمات بكلمات والعلامات بعلامات تكون متساوية لها في النطق، أي من جهة القرب والمعنى و المضمون[51].

على أثر ذلك يُميّز القديس اوغسطين بين نوعين من العلامات:

الأولى: العلامات الطبيعيّة "العفويّة": وسُمّيت بذلك لأنها تحدث بصورة طبيعية ودون تدخل الإنسان وإرادته، وفيها علامات إيحائية يُعتمد في تفسيرها على الوعي والخبرة الإنسانية، كدلالة الدخان على وجود النار. فمن خلال ملاحظة الظواهر المألوفة نستدل من علامات على علامات أخرى.

الثانية/ العلامات الاتفاقية "الصناعيّة": وترد أحيانًا تحت مُسمى العلامات الطوعيّة، وسُمّيت بذلك لأنها طوع إرادة الإنسان وعطائه، وترتبط بصورة كبيرة بقدرة الإنسان على التحكم والاختيار بين الأشياء والعلامات – كلمات – المختلفة. لذلك هي من اتفاقات الناس واصطلاحاتهم، ومنها العلامات الصناعيّة التي يتفق البشر فيما بينهم على اختيار مجموعة من الكلمات لأشياء مختلفة ليتمكنوا من التواصل فيما بينهم، وترتبط هذه العلامات بأفكار ومشاعر الناس يتم نقلها من عقل أحدهم إلى الآخر[52].

وهذه هي العلامات التي يهتم بها أوغسطين في نظريته اللغوية، وهو ما يتضح من النصوص الواردة في كتابه (في العقيدة المسيحية)، ((ونحن نرغب الآن في أن ننظر في هذا النوع من العلامات ونبحثه، بقدر ما يتعلق الأمر بالإنسان، لأن حتى العلامات التي أُعطيت لنا من الله، والتي ترد في الكتب المقدسة، قد أُبلغنا بها من خلال البشر، أعني أولئك الذين كتبوا الكتب المقدسة))[53]، فالقديس أوغسطين يهتم بتلك العلامات التي تكون موضع اهتمام وتواصل بين البشر حصريًا، ويستدرك غير مرّة بأن حتى العلامات السماوية التي نقرأها في الكتاب المقدس لا تخرج من كونها قد كُتبت من البشر أنفسهم، فالوسيلة البشرية هي الأساس لهذه العلامات.

ويُمكن أن نُلخص أبرز العلامات الصناعية بأنها:

أ. علامات لغوية، سواء كانت منطوقة أو مكتوبة، وتتمثل بالكلمات.

ب. إشارات جسدية، متمثلة بالحركات الجسدية والإيماءات والتي تتحقق بها الفائدة. ومن ضمنها الحركات والسكنات الخاصة بالصُم، فهم يسألون ويجيبون، يُعلّمون ويتعلّمون، ويفعلون كلّ ما يفعله الآخرون. وتشمل أيضًا الحركات التي يقوم بها الممثلون على المسرح، حيث يعتمدون على الأداء الحركي لإيصال أفكارهم والتعبير عن داخلهم ومشاعرهم[54].

ومن بين هذه العلامات المختلفة، أيُّ العلامات هي الأقرب والأنفع في التواصل بين البشر؟ يُفرد القديس أوغسطين الفصل الثالث لهذا الغرض، ويرى أن من بين العلامات تحتل فيها الكلمات المكان الأرفع. فالعلامات متعددة، منها ما يتعلق بحاسة البصر، وبعضها بحاسة السمع، وأخرى تتعلق بالحواس المتبقية. فمثلًا، عندما نُومئ برأسنا، فالأمر لا يدل ولا يوحي كعلامة إلا لعيني الشخص الذي نريد أن نُظهر له رغبتنا بهذا الإيماء، فهي مختصة. وكذا الأمر لمن يُعبّر كثيرًا بواسطة حركات اليدين، أما الممثلون فيُقدّمون إشارات ذات دلالات معيّنة من خلال حركات سائر أطراف جسمهم، ويوجّهون خطابهم إلى العيون. وكذلك الرايات والأعلام العسكرية تُظهر

أوامر القادة عبر العينين. وكل هذه العلامات يمكن اعتبارها نوعًا من "الكلمات المرئية". وعلى هذا النحو يُقال في العلامات التي تتوجّه إلى حاسة الأذن.

ولكن نالت الكلمات بين البشر، وبلا منازع على حد تعبيره – على اعتبار أنه يرى وجود علامات بين بقية الحيوانات – المكانة الأهم كوسيلة للتعبير عن أفكار النفس وما يختلجها من أحاسيس ومشاعر وانفعالات. وعلى ذلك ((فلا شك أن الرب قد أعطى علامة من خلال رائحة الطيب الذي سُكب على قدميه، وفي سرّ جسده ودمه أشار إلى إرادته عبر حاسّة الذوق، وحين لمست المرأة هدب ثوبه ونالت الشفاء، لم يكن ذلك الحدث خاليًا من المعنى الرمزي. ومع ذلك، فإن العدد الذي لا يُحصى من العلامات التي يُعبِّر بها الناس عن أفكارهم يتكوّن من الكلمات. فقد استطعتُ أن أُعبّر بالكلمات عن جميع تلك العلامات التي أشرتُ بإيجاز إلى أنواعها المختلفة، لكنني، مهما حاولت، لا أستطيع أن أُعبّر عن الكلمات نفسها باستخدام تلك العلامات الأخرى))[55].

- **معنى العلامة ومعرفة الغرض الذي تؤديه**، حيث يختلف الغرض بدرجة الرقي بين الإنسان والحيوان.
- **إعطاء علامة أو معنى لكلمات خارج معناها الحقيقي**، مثل التداخل الحاصل بين الشفقة والرحمة.

وينقل أوغسطين أن بعض الخصومات الفكرية تنشأ نتيجة عدم الاتفاق على معنى العلامة المقصودة. فهناك مناقشات تنتهي إلى خصومة لصيغة معينة بمجرد أن يعطي كل طرف معنى مغايرًا، وهذا لا يرجع إلى طبيعة معنى الفكرة نفسها، بل إلى معنى العلامات المستخدمة. فعلى سبيل المثال، إذا أشار أحدهم إلى أن الحيوان أرقى من الإنسان، قد يعترض البعض على هذا الادعاء، إلا أن القصد منه هو إدراك أن بعض علامات التفوق الجسدي التي تمتلكها الحيوانات قد تكون أعلى من الإنسان، وليس المسألة متعلقة بالمكانة العقلية التي يتميز بها الإنسان. فالعلامات تثير الأفكار فينا، ويتم فهمها بطرق مختلفة.[56] يرى أوغسطين أنّ الخلافات الفكرية تنشأ غالبًا من اختلاف فهم العلامات، لا من مضمون الأفكار نفسها.

ثامناً: أصل الكتابــة

يرى القديس أوغسطين أنّ الكلمات تتميز بكونها ألفاظًا تتطاير في الهواء، بالتالي فإنها لا تدوم بين أفراد البشرية الذين يتواصلون فيما بينهم. ونظرًا لزوالها، وجب أن يكون هناك من يحافظ على الكلمات. فالكتابة كظاهرة إنسانية تُعد من لوازم التحضر وتقدّم البشرية. لذا قام الناس باستخدام الحروف من خلال تحويلها إلى رموز وعلامات لحفظ الكلمات، وبذلك تحوّلت

الكلمات من أصلها المسموع إلى علامات مرئية للعين "حروف مكتوبة"، تدوم طويلًا وتساهم بلغة واضحة في نقل المعاني وتطوّر الأفكار وتوثيقها. فالكتابة هي الوسيلة لتوطيد وترسيخ الكلام.

ويتساءل في ذات الموضوع: لماذا لم يكن هناك **كتابة واحدة برمز واحد بين البشرية**؟ ويشير إلى أن جعل العلامات، بكلماتها المعروفة، موضع اتفاق بين الشعوب **مستحيل**، والسبب في ذلك:

- **ديني**: يرجعه القديس اوغسطين إلى الخطيئة الآدمية.
- **أخلاقي سياسي**: بسبب تعدد مشارب الناس وانقسامهم. فعلى سبيل المثال، لعبت الأنانية دورًا مهمًا في هذا الموضوع، إذ يسعى الناس إلى ما يُسميه "نيل المقام الأعلى". فكل فرد ومجموعة تسعى لفرض نفسها، والتميّز بسيطرتها، حتى لو كلف ذلك البطش وظلم الآخرين، فوصل بهم الغرور إلى تشييد برج – يقصد برج بابل – ليعانقوا السماء. فعاقبهم الله بتعدد اللغات والكتابة[57].

وفي الفصل الخامس من كتابه المتقدّم، يُحيل إلى الكتاب المقدس وكيف نُقل إلى لغات متعددة، على الرغم من أنّه في بداياته كُتب بلغة واحدة، لكن مع الخطيئة البشرية تُرجم ونُقل إلى لغات متعددة[58].

يتبين لنا أن اللغة المسموعة، رغم قدرتها على التعبير الفوري، محدودة في استمراريتها ودقتها، ما يجعل الكتابة وسيلة حيوية لحفظ المعاني ونقلها بين الأجيال. كما يشير إلى أن تعدد اللغات والرموز لا يعود فقط إلى اختلاف النطق أو المصطلحات، بل يعكس تحولات تاريخية واجتماعية وثقافية معقدة، تشمل التفاعلات البشرية والاختلاف في المعتقدات والقيم. ومن ثم، تصبح الكتابة أداة مركزية لترسيخ المعرفة، وضمان وضوح المفاهيم، وربط التجربة الإنسانية بالتجربة الجماعية. إضافة إلى ذلك، يظهر أن عملية اختيار الرموز واللغة ليست عملية طبيعية فحسب، بل تتأثر بالوعي الإنساني وقدرته على التنظيم والتواصل، ما يجعل اللغة نظامًا حيًا من العلامات يتطلب فهمًا دقيقًا لبنيته ووظيفته في نقل الأفكار وتوثيقها.

تاسعاً: النص والتفسير ودلالتهما

كان للكتب المقدسة، ومنذ الأزمنة القديمة، أهمية بالغة لدى البشرية، وذلك لأنها تشكل مكانة مركزية في حياة الإنسان. ومع الإنجيل، وتحديدًا في العصور الوسطى، عبروا عنه بأنه كلمة الله المقدّسة، وذلك لتأثيره في حياة الناس الدينية والأخلاقية والأدبية والقانونية وغيرها. فلم يُنظر إليه كمجرد نصوص مكتوبة، بل هو تمثيل عام ومطلق لإرادة الله وحكمته.

أولى القديس أوغسطين اهتمامًا بالغًا بالنصوص، سواء باعتبارها مكتوبة أو في سياق فهمها وتفسيرها، إذ لعبت دورًا محوريًا في تشكيل تقلباته الفكرية وحياته الدينية. وقد شكّلت النصوص الفكرية والدينية والفلسفية محورًا رئيسيًا في دراساته وتأملاته، حيث ارتبطت عملية تفسيرها بالبعد المجازي والأخلاقي والفلسفي والديني على حد سواء. ويشير "حنفي" إلى مجموعة من القواعد الأساسية التي ينبغي الالتزام بها عند تفسير النص، منها:

- أن يجري التفسير على **مبادئ لغوية محكمة**، باعتبار أنّ اللغة هي نقطة الاتصال الأساسية في فهم النص وتفسيره، لا سيما فيما يتعلّق بتفسير الكتاب المقدس.
- بعد اللغة، يأتي دور **المعنى** باعتباره الوسيط الذي يربط الكلمة بالشيء ويقوده إلى الفكر.
- ضرورة **معرفة القواعد والأصول الخاصة بمنطق اللغة** لضمان تفسير محكم ودقيق، والحفاظ على صحة الاستدلال عند تناول الأفكار والمعاني، كما بيّن في كتابه "في العقيدة المسيحية"[59].

وفي سياق حديثه عن الموضوع يرى فيلسوفنا بأن النص لا يقتصر في فهمه على الملائكة بل يُمكن فهمه من أُناس مختصون يعرفون قراءته فالمسألة لا تكون امتيازا للملائكة فقط، إذ الملائكة ((ليست بحاجة إلى مشاهدة هذا الفلك ولا إلى تعلم كلامك بالقراءة، إنهم دوما يُشاهدون وجهك .. دون اللجوء إلى مقاطع كلاميّة، متتابعة في الزمن: قراءة واختيار ومحبة، يقرأون دوما ويبقى ما يقرأون))[60]، أما البشر تكون قراءتهم للنص ممارسة فكرية بشرية متغايرة، فيها تعدد للقراءة والتأويل من خلال ربط الأحداث مع بعضها البعض كأن تكون:

- **قراءة فلسفية** : يتساؤل فيها عن البعد الكوني والوجودي في هذا العالم، وهو ما يتضح من مخاطبته لله ((ما هي الفائدة التي جنيتها من خلق السماء والأرض في البدء؟ أني أسأل الطبيعة الروحية والجسدية التي ابدعتها حكمتك.. ما أعظم الفرق بين أن تحيا هذه المخلوقات وأن تحيا بحكمة))[61].
- **قراءة روحية**: توضح الأسرار الإلهية وربطها بالفيوضات والترانيم السماوية، وهو ما يتضح من نص بالغ الأهمية ((.. ولا على كتابك المقدس مع ما في بعض مقاطعه من غموض، نُخضِعُ له فكرنا، وبقوة نؤمن أن الذي لا يزال فهمه مُغلق علينا، حقيقي وصحيح))[62].
- **قراءة قيميّة:** تفسر النصوص في ضوء الدروس الأخلاقية والجمالية.

وعلى أثر ذلك، دوّن الباحثون بأن أوغسطين تحدث عن النص سواء كان في اللغة المتعالية "الكتب السماوية" أو بما تعلّق بالكتب والمعارف البشرية [*] ففي الإطار المفاهيمي، نلاحظ أن

كتاب "اعترافات "لأوغسطين يزخر بالمفاهيم التأويلية. فلو قورنت، على سبيل المثال، بين الثالوث الأقدس ومباحث الفلسفة، لُوحظت مقاربة تأويلية بين المسألتين. فثلاثية الثالوث المقدس في اللاهوت المسيحي لا تبتعد جوهريًا عن الثلاثية الفلسفية الإنسانية، على الرغم من الفروق الأساسية بينهما، إلا أن التأمل فيهما يُتيح فهم طبيعة عالم اللاهوت وعالم الناسوت. وعلى الإنسان أن يدرك تمامًا اختلافه عن الثالوث، لكنه مدعو للتأمل فيه وفهمه، إذ أن هناك عناصر أساسية مثل **الوجود والمعرفة والإرادة**، يتجسد كل منها في الإنسان من خلال إيمانه بأنه موجود، ويعرف، ويريد. وترتبط حياة الفرد ارتباطًا وثيقًا بهذه المفاهيم، بحيث تكون حياته واحدة، وعقله واحد، وجوهره واحد [63].

فعلى الناس ان يتأملوا ويفهموا بأن حياتهم ترتبط بهذه المفاهيم الثلاثة:

1. **المفهوم الأنطولوجي**: الاستثمار الوجودي لطاقات الإنسان للفهم والتأمل والإيمان بنفسه ككيان قائم بذاته.
2. **المفهوم الإبستمولوجي**: معرفة قدرة الإنسان في مجال المعرفة للوصول إلى فهم النصوص.
3. **المفهوم الأكسيولوجي**: عمل الإنسان وقدرته على اتخاذ القرار والتوجه نحو غاياته.

فلا قراءة للنص إلا من خلال استلهام الفهم من كتب اللاهوت والطبيعة بجانب الكتب السماوية. فمن فهم كتب الطبيعة ولم يرَ الله فيها سيكتشفه في الآخر. ومن فائدة هذا الخلط في قراءة النصوص فهم الوجود الكوني الإلهي، الذي سيعرفه الوثنيون بأنفسهم. لذا يصرح أوغسطين بأن : ((الوثنيين أعلم بكيفية الجمع وقراءة هذه الحروف والرموز الصوفية منّا نحن المسيحيون، الذّين نلقي نظرة مهملة على هذه الحروف الهيروغليفية العامة، ونرفض امتصاص اللاهوت من زهور الطبيعة)) [64].

وعلى ذلك يتوضح جملة من الأمور:

1. قيمة التأمل ودوره في تحفيز الوعي لدى الإنسان للوصول إلى الحقيقة المطلقة.
2. إن القراءة وفهم النص تعتمد بصورة كبيرة على ما يُسميه (مقاطع الزمن) إذ القراءة بدون مقاطع الزمن أمر يتناقض بصورة كبيرة مع النشاط الذهني [*] للبشرية المتمثل في التدقيق المستمر في النصوص ومعرفة علاقتها مع الحوادث والظواهر المستمرة.
3. التشجيع على القراءة المستمرة وتوضيح النصوص الغامضة سيما ما تعلق بالكلمة الإلهية [65].

وعلى غرار ما ذهب إليه بعض فلاسفة اللغة في الفترة الحديثة والمعاصرة، يلوح من بعض النصوص بأن أوغسطين دعا في تعامله مع النص إلى قراءة ما يخفيه النص من معانٍ باطنة. وهذا ما بيّنه في كتاب (في العقيدة المسيحيّة)، حيث يركّز على التمييز بين العلامات المجازية "الغامضة" والعلامات المباشرة. وكل كلمة أو علامة لا تناسب صحة العقيدة الدينية كما وردت في النص يجب عدم فهمها بالمعنى الحرفي، وإخراجها إلى المعنى المجازي، إذ تتجاوز الكلمة معناها الظاهر لتُأوّلَ إلى حقيقة أخرى. والمبدأ العام الذي يأخذه في التفسير هو أن أي تفسير لا يُمكن القطع بصحته ما لم يعزز محبة الله ومحبة الإنسان[66]. فالكلمات، على اعتبارها علامات، تؤخذ كنموذج للتأمل وتحليل بنية الأشكال الثقافية والفكرية الموجودة في كل نص. وكل النصوص، سواء أكانت فلسفية أو فكرية، ترتبط في نهايتها ارتباطًا وثيقًا بالكتب المقدسة، التي هي في حد ذاتها تجسيد للكلمة والحكمة الإلهية، على اعتبار أن هذا الكتاب لا يُعتبر كتابًا يعالج مسائل معينة، بل كلٌ متكاملٌ غرضه الوصول إلى الحقيقة، وهو ما عبّر عنه أوغسطين بـ (القانون الجديد للمحبة)[67]. لكن ذلك لا يعني أن أوغسطين سلّم بالقراءة الجامدة للكتاب دون محاولة الفهم العميق للنص، وهو ما عبّر عنه "جيسي غيلريج" بـ(الاستعارة النصية) عند أوغسطين، لتبرز بذلك علاقة مهمة من النقاش بين النص والقارئ في نظامي الطبيعة والتاريخ. وبذلك يُرسخ لمفهوم التاريخ باعتباره نصًا كُتب لمراحل زمنية تتكامل مع بعضها البعض عضوياً، وإن كانت هناك كتابة ملائكية خالدة، لكن الفهم يؤدي إلى اختفائها وراء اللغة الزمنية المتغيرة، فيدعو((إلى التحدي عبر قراءة نقدية للنص ولصياغة نظريات نقدية تختبر وتتساءل طرقنا في انتاج المعنى، وهذا المطلب يوفر مدخلا لفهم جديد للثقافة لا علاقة له بالبحث التاريخي فقط، بل هو مذهب تاريخي جديد ومستنير))[68].

عاشـراً : صلة اللغة بالمعرفة الإلهية والإنسانية

يتحدث أوغسطين عن الفائدة العظيمة التي تقوم بها اللغة في حياتنا، إذ هي بكل تأكيد ليست بالقليلة، لكن أكثر الناس لا يستطيعون أن يُميزوا الدور الحقيقي الذي أُنيط للغة. فيظنون أن مجرد التحدث الظاهري مع الآخرين يمكنهم من التعلّم عن طريق المعلم. فيتساءل: كيف يُمكن لنا أن نتعلّم العلوم؟ يتم ذلك عن طريق الكلمات التي يُعلمها المعلمون في التخصصات التي يُدرّسونها. لكن هل يعني ذلك أننا نتعلّم أفكارهم؟ بكل تأكيد لا، بل يفحص الطلاب ما لديهم من كلمات داخلية ليتحققوا مما إذا كانت الأشياء التي تلقّوها صحيحة.

فيبرز هنا تساؤل آخر: من هو المعلم الحقيقي الذي يحمل كل الأفكار الصحيحة والمطلقة التي نأخذها منه دون حاجة للتمحيص والتدقيق؟ يرى بأنّ المعلم الحقيقي (**الله**) وهو: ((المعلم الباطن والنور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتٍ إلى هذا العالم))[69]، وهو الحقيقة التي لا تنتمي إلى المعلم البشري ولا إلى الطالب، ويُطلق عليه (**المُعلّم الداخلي**). وهو مفهوم يحمل من جهة معنىً فلسفيًا، ومن جهة أخرى يحمل معنى روحيًا. أراد به أن يُبيّن أن المعارف لا يُمكن أن تكون جميعها مكتسبة عن طريق المصادر الخارجية بواسطة المعلم، الذي يقتصر دوره على التوجيه والإرشاد [70]. بينما المعلم الحقيقي هو القادر على تعليم الأشياء باللغة عن طريق الوحي، وهو يعلم الأشياء بنفسها دون مدلولها أو علامتها، فيحصل الكشف عن الأشياء بصورة مباشرة بعيدًا عن الكلمات. ويُوضّح أوغسطين أن الفرق بين التعليم الخارجي والتعليم الداخلي أنّ الأول يقود إلى الإيمان، بينما الثاني يقود إلى العلم، مما يُحيلنا إلى موضوع نظرية المعرفة، وكيف أن المعرفة العقلية أو "المعلم" لا تكون إلا عن طريق المعلم الداخلي، والذي يُعبّر عنه بالمسيح، بينما الكلمات تقودنا إلى المعرفة الخارجية "المادية" وكيفية أخذها عن المعلم الخارجي[71].

لم يتنازل القديس أوغسطين عن قيمة المعرفة الحسية، أي "الكلمات"، كما فعل الأكاديميون "الشكاك"، ولم يقل أيضًا إن العالم الحسي باطلًا، بل أقر بوجوده الحقيقي، مع الإشارة إلى أن وجوده لا يساوي الوجود العقلي. فالمعرفة الحسية تقودنا إلى الإيمان دون العلم، بينما المعرفة التي تؤدي إلى العلم هي معرفة الحقائق الأزلية والأبدية الكامنة بطبيعتها في النفس الإنسانية، ومصدرها الإشراق "الإشعاع"، وهي موجودة في النفس كفيض من النور الأول الذي يُسميه الكلمة أو Logos أو الله[72].

ضمن هذا السياق، ولمّا كان الله هو المعلم الداخلي، فكيف يُمكن لنا فهمه، وما هي طبيعة التعاليم التي تكون موجودة في النفس؟ يرى أوغسطين في الإجابة على هذا التساؤل استعارة مفهوم "الإضاءة"، والاستعارة ترد في فلسفته بصورة واضحة، سيّما في الموارد التي تتقاطع فيها رؤيته الفلسفية مع النص المقدس. فيستعير "الإضاءة" لبيان كيفية رؤيتنا للأجسام الخارجية ووجوب تسليط الضوء على الأشياء لرؤيتها. وكذلك الأمر مع مجموعة من الحقائق الفلسفية والرياضية والمنطقية والروحية، التي تُضاء داخل الإنسان بنور إلهي قبل أن يستوعبها العقل. فالله هو مصدر النور الإلهي الذي يجعل من العلوم والحقائق مفهومة للعقل، فنسبة الله إلى عقولنا كنسبة الشمس إلى بصرنا؛ الشمس مصدر النور، والله مصدر الحقيقة[73].

نلاحظ تصورًا متوازنًا لقيمة المعرفة الحسية مقابل المعرفة العقلية، مع التأكيد على أن الحواس لا تُلغى لكنها تقود إلى إيمان محدود، في حين تُفضي المعرفة العقلية إلى استيعاب الحقائق الأزلية والأبدية. الفكرة المركزية هنا هي أن الفهم البشري يتطلب "إضاءة" داخلية تُمكن العقل من إدراك هذه الحقائق، بما يجعل التعلم لا يقتصر على التجربة الحسية وحدها، بل يعتمد على مصدر معرفي أعمق يُمكّن الإنسان من إدراك المعاني والحقائق الكامنة في ذاته. المقطع يبرز علاقة وثيقة بين التجربة الإنسانية والمعرفة المطلقة، مؤكدًا أن العقل بحاجة إلى ضوء يوجهه لفهم الواقع والحقائق بشكل متكامل.

الخاتمة والنتائج:

في ختام هذه الدراسة، يتضح أن القديس أوغسطين قد صاغ نظرية للغة تراعي تطورات تجربته الفكرية والثقافية، مستندًا إلى مزيج من العناصر اللاهوتية والفلسفية، بحيث لم تكن مرتكزاته مقتصرة على البعد الإيماني أو العقلاني وحدهما. ويمكن تلخيص أبرز ما استخلصته الدراسة فيما يلي:

1. ربط أوغسطين بين اللغة والوحي والفلسفة، بما يشمل الأنطولوجيا والأبستمولوجيا و الأكسيولوجيا، مما يعكس رؤية شاملة تجمع بين البعد الديني والعقلي. لذلك كانت اللغة عنده أداة للتأثير والفهم بين المعنى والواقع.
2. تجاوزت اللغة حدود كونها وسيلة للتواصل، لتصبح عنصرًا فعالا مع النصوص، يتطلب التأويل والتفسير لفهم العالم ومقاصده. فهي الوسيلة للوصول الى الحقيقية المطلقة.
3. اعتبرت مسألة الإشارة والعلامة والمعنى جوهرية لفهم الخطاب اللاهوتي والفلسفي، فهي الركيزة الأساسية للفهم والتفسير.
4. ارتبطت اللغة بالوعي والتفكير، وكل تصور للكلمة يُحيل إلى معنى وعلامة فكرية، لتصبح العلامة المحور المركزي للنظرية اللغوية عند أوغسطين. إذ التعلم إستطاعة للمعرفة من خلال التذكر.
5. لم تقتصر اللغة على الأصوات الخارجية، بل شملت الكلمات الداخلية المرتبطة بالنفس والذاكرة، والتي تستمد وجودها من الكلمة الإلهية، متجاوزة حدود اللغة البشرية الطبيعية.
6. ارتبطت معالجة أوغسطين لموضوع اللغة ارتباطًا وثيقًا بمحاولة ربط الرمز بالمفهوم الذي يُحيل إليه، وهو ارتباط يتصل بدوره بالواقع والعالم والفكر والثقافة.

7. تناول أوغسطين نظريته اللغوية من خلال سردية حياته، ولا سيما في كتابيه المعلّم والاعترافات، حيث انسجمت هذه النظرية مع تحوّلاته الفكرية، فامتلك القدرة على اكتشاف آلية التعلّم، وحفظه في الذاكرة، ونقله إلى الآخرين عبر الكلمات الخارجية.

الهوامش:

([1]) القديس أغوسطينوس، الاعترافات، نقلها إلى العربية يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط4. 1991، ص9. (ك1)

([2]) المصدر السابق، ص11. (ك1)

([3]) ينظر: بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص267.

([4]) فتجنشتين، لودفيج: بحوث فلسفية، ترجمة عزمي إسلام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، جامعة الكويت، الكويت، بدون سنة طبع، ص47.

([5]) فتجنشتين، لودفيج: بحوث فلسفية، ص47.

([6]) ينظر: المصدر السابق، نفس الصفحة.

([7]) ينظر: المرجع السابق، ص47.

([8]) ماثيوز، جاريث.ب.: أوغسطين، ترجمة أيمن زهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013، 52.

([9]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات، ص205. (ك10)

[10] See: CHRISTOPHER KIRWAN (Augustine's philosophy of language), in [The Cambridge Companion to AUGUSTINE], EDITED BY: ELEONORE STUMP AND NORMAN KRETZMANN, Cambridge university press, U.K, First published 2001, p 190.

([11]) الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس، القاهرة، ط2، 2004، ص22. (انجيل متّى: 23-8، 23-10)

([*]) لم يرتضِ أوغسطين التعريف المنطقي والفلسفي الشائع للإنسان بأنه حيوان ناطق أو عاقل، فلا ينطلق في تحديد ماهيته من العقل بقدر ما يلج على أصل الوجود الإنساني، وشخصيته العيانية وبذلك يُعرّف الإنسان بأنه إمكانية ما يكون"، فهو أمام خيارات عدّة تُفضيها انتخاباته وعليه يكون ((منفتحا على دلالات ومعان يستطيع أن يجسد ما انتقى لنفسه وما اختار وجوده بيده. إنه أمكانية أن يكون ما يشاء..، إنها فلسفة حياة تبدأ بتعريف الإنسان على أنه إمكانية وجود)). زيعور. علي: أوغسطينوس "مع مقدمات في العقيدة المسيحيّة والفلسفة الوسيطيّة"، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983، ص259 وكذلك ص 261.

([12]) يُنظر: زيعور. علي: أوغسطينوس "مع مقدمات في العقيدة المسيحيّة والفلسفة الوسيطيّة"، ص261.

([13]) يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (أوغسطين – أنسليم – توما الأكويني)، ص21.

[14] See: CHRISTOPHER KIRWAN (Augustine's philosophy of language), in [The Cambridge Companion to AUGUSTINE], p 190.

([15]) ماجين، ماري: فتجنشتين والبحوث الفلسفية، ترجمة رضا زيدان، مركز براهين، لندن، ط2، 2016، ص65.

([16]) ينظر: فتجنشتين: لودفيج: بحوث فلسفية، ص48.

([17]) ماجين، ماري: فتجنشتين والبحوث الفلسفية، ص101.

([18]) (see: Augustine: Against the Academicians and The Teacher, Translated with Introduction and Notes by, Peter King, Hackett Publishing Company, Indiana, 1995, p101. (3.6). as well as: SANTO AGOSTINHO: DE MAGISTRO, Editor Felipe Denardi, 1∂ edicao – Setembro de 2017, CEDET - Centro de Desenvolvimento Profissional e Tecnológico, Campinas- SP, P 26-27. (Ill, 6)

([19])see: Gilson, Etienne: The Christian Philosophy of Saint Augustine, trans. L. E. M. Lynch, A Division of Random House, New York, 1967 [1st ed. 1960], p 67.

([20]) حنفي: حسن: نصوص من الفلسفة المسيحة في العصر الوسيط، دار التنوير، بيروت، 2008، ص21.

([21]) Gilson, Etienne: The Christian Philosophy of Saint Augustine, p67

([22]) يُنظر: نادو. كريستيان: المفردات والأسلوب عند القديس اوغسطين، ت شادي رباح نصر، النايا للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2014، ص129-130. يُنظر كذلك: ماثيوز، جاريث ب.: أوغسطين، 53-54.

([23]) see: BURTON, PHILIP: Language in the Confessions of Augustine, Oxford University Press, New York, First Published, 2009, p1.

([*]) أقسام الكلام عند اوغسطين هو ما احتوى في كل قضية (الأسماء، أدوات الاستفهام، الأفعال، الظروف، اسم المفعول، حروف العطف، حروف الجر، الصيغ الإنشائية (Interjenctio). يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط...، ص60.

([24])(SANTO AGOSTINHO: DE MAGISTRO, P 36. (IV,9). as will as: Augustine: Against the Academicians and The Teacher, p106.(4.9)

([25]) See: Burton, Philip: Language In The Confessions Of Augustine, P2-3.

([26]) يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط...، ص60.

([27])(Santo Agostinho: De Magistro, P 56. (V,16). As Will As: Augustine: Against The Academicians And The Teacher, P115.(5.16)

([28]) Santo Agostinho: De Magistro, P 52. (V,14)

([29])See: Santo Agostinho: De Magistro, P13.(L, 1)

([30]) Santo Agostinho: De Magistro, P14.(L, 1)

يُقارن مع: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (أوغسطين – أنسليم – توما الأكويني)، ص36.

([31]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات، ص201. (ك10)

([*]) في اطار حديث أوغسطين عن النفس وعلاقتها بالجسد واستقلال كل واحد منهما عن الآخر، احتلت الذاكرة موقعا أساسيا في فلسفته، فليست الذاكرة ملكة مستقلة ضمن قوى النفس بل هي كما يعبر في كتاب "الاعترافات" (الذاكرة هي العقل ذاته) (الاعترافات، ص206، ك10)، وعلى هذا الأساس لا تعد الذاكرة مجرد مكانا لحفظ الوقائع والذكريات الماضية، بل هي المكان الذي يرتبط بها المعارف وتقوم بمهام أكثر تعقيدا وإشكالية، فتكون الذاكرة الموقع الذي يتجلى فيه كل ما يمتلك الإنسان من خبرات في الماضي واستبصار للمستقبل، بالاعتماد على خبراته وتجاربه ترتبط بالفهم والإرادة والفكر. See: ROLAND TESKE (Augustine's philosophy of memory), in [The Cambridge Companion to AUGUSTINE], p 148-150.

([32]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات ، ص201-202. (ك10)

([33]) المصدر السابق، ص202.

(*) ينقل "أتين جيلسون" في كتابه (مقدمة في دراسة القديس أوغسطين) رأي مُستحسن وخلّاق في هذه المسألة، فيرى بأنّ أوغسطين يستخدم مصطلحي "النسيان" و"الاستذكار" بالتعاقب، وبنفس ما تحمله الفكرة من معنى كما جاءت في الفلسفة الأفلاطونية وذلك للقطع بأنّ النفس كانت موجودة قبل الجسد، لكن رأي أوغسطين في المسألة متذبذب مع تطوراته الفكرية والثقافية والدينية، فمع بداياته المبكرة أخذ بالقبلية بينهما، لكن يصعب تحديد ما إذا كان فيلسفونا قد سار على ذات المنهج مع تطوراته الفكرية، يقول "جيلسون" في ذلك: ((وبالنظر إلى اللغة الصريحة التي يستخدمها خلال السنوات الأولى وطريقة تراجعه اللاحقة، أميل إلى الاعتقاد أن أوغسطين قبل في البداية بالعقيدة الأفلاطونية الأصلية. ويبدو هذا الرأي أكثر احتمالًا إذا أخذنا في الاعتبار أنه لم يرفض بشكل قاطع فكرة أن النفس قد توجد قبل الجسد، وفي الأوغسطينية الناضجة، أصبح الاستذكار الأفلاطوني منفصلًا تمامًا عن فرضية وجود النفس قبل الجسد. فكيف نفسر إذن التكرار المستمر لهذه الصيغة الأفلاطونية في كتابات أوغسطين؟ وفي أي معنى يظل من الصحيح القول إن التعلم هو تذكّر؟)).
Gilson, Etienne: The Christian Philosophy of Saint Augustine, p73.

([34]) يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (أوغسطين – أنسليم – توما الأكويني)، ص23.

([35]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات، ص204. (ك10)

([36]) يُنظر: المصدر السابق، نفس الصفحة.

([37]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات، ص205. (ك10)

([38]) ينظر: بدوي، عبد الرحمن: فلسفة العصور الوسطى، دار القلم، بيروت، ط3، 1979، ص24-25.

([39]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات، ص204. (ك10)، يُقارن مع: بدوي، عبد الرحمن: فلسفة العصور الوسطى، ص22.

([40]) فريس، جان كلود: القديس أوغسطين، ص96.

([41]) القديس أغوسطينوس: الاعترافات، ص205. (ك10)

([42])See: G. P. Baker And P. M. S. Hacker, Wittgenstein: Understanding And Meaning. Part I: Essays, 2nd Extensively Revised Edition By P. M. S. Hacker, Oxford: Blackwell Publishing, 2005 ,P 4-5.

([43]) يُنظر: ماثيوز. جاريث ب: أوغسطين، ص48. وكذلك: نادو، كريستيان: المفردات والأسلوب عند القديس اوغسطين، ص129.

([44]) ماثيوز. جاريث ب: أوغسطين، ص51-52.

([45])(Augustine: Against The Academicians And The Teacher, P99.(2.3). As Well As: Santo Agostinho: De Magistro, P19.(II,3)

([46])Saint Augustine: On Christian Doctrine, Christian Classics Ethereal Library, Michigan, P24, (Ch1, BII).

([47])Ibid: P25. (Ch2, BII)

([48])Ibid, P24.

([49])Augustine: Against The Academicians And The Teacher, P97.(2.3). See;

([50]) Ibid, P98. 2.3

ينظر كذلك: ماثيوز، جاريث ب.: أوغسطين، ص52.

[51] See: AGOSTINHO: DE MAGISTRO, P20-21.(II,4)

ينظر كذلك: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ....، ص41.

([52]) See: CHRISTOPHER KIRWAN (Augustine's Philosophy Of Language), In [The Cambridge Companion To AUGUSTINE], P 190. As Well As: Saint Augustine: On Christian Doctrine, P24-25, (Ch1, BII).

ينظر كذلك: موسوعة ستانفورد للفلسفة، باب القديس أوغسطين، تورناو، كريستيان، ت ناصر الحلواني، حكمة، 2020، ص29.

[53]Saint Augustine: On Christian Doctrine, P25, (Ch2, BII).

([54]) يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط...، ص45.

[55] Saint Augustine: On Christian Doctrine, P25, (Ch3, BII).

يقارن مع: فريس، جان كلود: القديس اوغسطين، ت عفيف رزق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1982، ص91.

[56]See: Gilson, Etienne: The Christian Philosophy Of Saint Augustine, .P 68 - 69.

[57] See: Saint Augustine: On Christian Doctrine, P26, (Ch4, Bll).

[58] Ibid: P26-27. (Ch5, Bll).

([59]) يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ....، ص28-29.

([60]) القديس أوغسطينوس: الاعترافات، ص305. (ك 13)

([61]) المصدر السابق، ص296. (ك 13)

([62]) المصدر السابق، ص315. (ك13)

([*]) ويُلاحظ كذلك بأن القديس أوغسطين يتحدث عن الحقائق المُطلقة كالحقائق الرياضية والمنطقية التي يجمع بينها مفهوم الوحدة الذي يُسهّل عملية إدراك هذه الحقائق ويكون بمثابة المطلق إليها، ولقد أشار أوغسطين أن الموضوعات (الأشياء) التي يتم تجربتها وتنشأ من أجزاء يتم تناولها بعد ذلك بوصفها مجتمعة وكأنّها شيء واحد، والوحدة عند أوغسطين ليست نوعا من أنواع الاستقراء وإنما هي عامل مُساعد على تفسير محتويات خبرتنا، وعلى ذلك فإن معظم المناطقة المحدثين يتفقون مع معظم النقل الواعي لبعض الحقائق الجوهرية – الصورية – المتعلقة بالرياضيات والمنطق، وهم يشتركون مع أوغسطين في النتيجة التي تنشق من خلال هذه القضية الجدلية، إن أوغسطين يقر بأن المعرفة الاستقرائية معرفة ذات موضوعات مختلفة عن موضوعات أخرى حسية في كونها أعلى منها فحسب، أي في مرتبة مرتفعة عنها، ومعرفتها مُيسرة، وتتميز عن المعرفة الحسية بالوضوح والتأكيد.

ينظر: تراتشي/ ماركوس: مقالات في فلسفة العصور الوسطى، ت ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة (الإسكندرية)، 1997، ص43-44.

([63]) يُنظر: القديس أوغسطينوس: الاعترافات، ص301. (ك 13)

[64] See: Jesse M. Gellrich: The Idea Of The Book In The Middle Ages: Language Theory, Mythology, And Fiction, (Ithaca, NY: Cornell University Press, Second Printing, 1986. P29.

([*]) يرتبط مبحث اللغة عند أوغسطين بصورة كبيرة بمبحث الكليات عنده، حتى أن الباحثين والدارسين في فلسفته أو لاهوته لم يعمدوا إلى وضع مبحث خاص يتناولون به رؤيته لهذه المسألة التي انشغل بها فلاسفة العصر الوسيط سيما بين القرن العاشر والثاني عشر منه، لكن يُمكن أن نصل فيما كُتِبَ عنه بفكرة عن الكليات ورؤيته الواقعية لها. إذ الرؤية الواقعية للكليات تنص على أن الأشياء/ الموضوعات لها وجودان حقيقيان في الذهن والخارج، إلى مثل هذا الرأي يذهب أوغسطين في نواح عديدة، فالذهن عنده يعي قبل كل شيء الحقائق العامة والثابتة، كما أن هذه الحقائق خالدة وموجودة في الذهن وهي انعكاس للحقائق الخالدة الموجودة موضوعيا، أي تلك التي لها وجود مستقل في الخارج.

يُنظر: تاتاركيفيتش، فوادسواف: فلسفة العصور الوسطى، ت محمد عثمان العجيل، دار كنوز، القاهرة، 2012، ص64.

[65] See: Jesse M. Gellrich: The Idea Of The Book In The Middle Ages: Language Theory, Mythology, And Fiction, P29.

[66] Saint Augustine: On Christian Doctrine, P50.

[67] See: Jesse M. Gellrich: The Idea Of The Book In The Middle Ages: Language Theory, Mythology, And Fiction, P30-31.

[68] Ibid, P37. Also. P50.

([69]) كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة الأوربّية في العصر الوسيط، دار الكاتب المصري، القاهرة، ط1، 1946، ص36.

[70] See: Gilson Etienne: The Christian Philosophy Of Saint Augustine, P76.

([71]) يُنظر: حنفي، حسن: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط...، ص28.

([72]) يُنظر: بدوي، عبد الرحمن: فلسفة العصور الوسطى، ص24-25. كذلك: بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص250.

[73] See: Gilson, Etienne: The Christian Philosophy Of Saint Augustine, P78-78.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً : الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس، القاهرة، ط2، 2004.

ثانياً: المصادر الاجنبية:

1. CHRISTOPHER KIRWAN (Augustine's philosophy of language), in [The Cambridge Companion to AUGUSTINE], EDITED BY: ELEONORE STUMP AND NORMAN KRETZMANN, Cambridge university press, U.K, First published 2001.
2. Augustine: Against the Academicians and The Teacher, Translated with Introduction and Notes by, Peter King, Hackett Publishing Company, Indiana, 1995.
3. SANTO AGOSTINHO: DE MAGISTRO, Editor Felipe Denardi, 1∂ edicao – Setembro de 2017, CEDET - Centro de Desenvolvimento Profissional e Tecnológico, Campinas- SP .
4. Gilson, Etienne: The Christian Philosophy of Saint Augustine, trans. L. E. M. Lynch, A Division of Random House, New York, 1967 [1st ed. 1960].
5. BURTON, PHILIP: Language in the Confessions of Augustine, Oxford University Press, New York, First Published, 2009.
6. G. P. Baker and P. M. S. Hacker, Wittgenstein: Understanding and Meaning. Part I: Essays, 2nd extensively revised edition by P. M. S. Hacker, Oxford: Blackwell Publishing, 2005.
7. Saint Augustine: On Christian Doctrine, Christian Classics Ethereal Library, Michigan.

8. Jesse M. Gellrich: The Idea of the Book in the Middle Ages: Language Theory, Mythology, and Fiction, (Ithaca, NY: Cornell University Press, Second printing, 1986.

ثالثاً / المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

9. بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.
10. تاتاركيفيتش، فوادسواف: فلسفة العصور الوسطى، ت محمد عثمان العجيل، دار كنوز، القاهرة، 2012،
11. تراتثي/ ماركوس: مقالات في فلسفة العصور الوسطى، ت ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة (الإسكندرية)، 1997.
12. حنفي: حسن: نصوص من الفلسفة المسيحة في العصر الوسيط (أوغسطين- انسليم – توما الأكويني)، دار التنوير، بيروت، 2008.
13. زيعور. علي: أوغسطينوس "مع مقدمات في العقيدة المسيحيّة والفلسفة الوسيطيّة"، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983.
14. فتجنشتين، لودفيج: بحوث فلسفية، ترجمة عزمي إسلام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، جامعة الكويت، الكويت، بدون سنة طبع.
15. فريس، جان كلود: القديس اوغسطين، ت عفيف رزق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1982.
16. القديس أغوسطينوس، الاعترافات، نقلها إلى العربية يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط4. 1991.
17. كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة الأوُربيّة في العصر الوسيط، دار الكاتب المصري، القاهرة، ط1، 1946.
18. ماثيوز، جاريث.ب.: أوغسطين، ترجمة أيمن زهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013.
19. ماجين، ماري: فتجنشتين والبحوث الفلسفية، ترجمة رضا زيدان، مركز براهين، لندن، ط2، 2016.
20. نادو. كريستيان: المفردات والأسلوب عند القديس اوغسطين، ت شادي رباح نصر، النايا للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2014.

رابعاً / الموسوعات والمعاجم:

21. بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.
22. موسوعة ستانفورد للفلسفة، باب القديس أوغسطين، تورناو، كريستيان، ت ناصر الحلواني، حكمة، 2020.

The Theory of Language and Its Semantics in Saint Augustine

Dr. Hasan Mohammed Jasim

College of Arts - University of Basrah

hasan.jasim@uobasrah.edu.iq

Keywords: Language ،Meaning ،Sign and Indication ،Text ،Language and Memory

Summary:

The research revolves around Saint Augustine's theory of language، highlighting and emphasizing the key concepts he discussed on this subject. Augustine accorded supreme importance to language، not merely as a means of communication، but as a fundamental instrument for understanding، interpreting، and preserving things through writing. Writing، as a human phenomenon، is considered an essential condition for civilization and the advancement of humanity. Thus، people employed letters by transforming them into symbols and signs to preserve words. Augustine also regarded language as a medium for thought and a vehicle for conveying meanings and emotions to others. For human life، there is no alternative to language; rather، it constitutes a process of self-discovery bestowed by God upon humankind. Moreover، he linked it to signs، which refer to other concepts and objects، thereby enabling us to grasp the nature of the relationship between word and meaning. This does not stop at this point but extends further to the profound connection between language، thought، and memory. Consequently، there is no doubt that language is the mirror of all human intellectual and mental processes. This ultimately led Augustine to associate it with knowledge، for understanding and knowing the world can only be achieved through language.